

شاعر الحسن

كلف الراقى بالشعر من أول نشأته ، فما كان له هوى إلا أن يكون شاعراً كـبعض من يعرف من شعراء العربية ، أو خيراً ممن يعرف من شعراء العربية ... وكان واسع الأمل ، كثير الثقة ، عظيم الطموح ، كثير الاعتداد بالنفس ؛ فمن ثم نشأ جباراً عريض الدعوى طويل اللسان من أول يوم ... وبهذه الكبرياء الأدبية الطاغية ، وبما فيه من الاستعداد الأدبي الكبير ، وبما في أعصابه من دقة الحس وصرعة الاستجابة لما تفعل به — بكل أولئك تهيأ لأن يكون كما أراد ، وأن يبلغ بنفسه هذا المكان بين أدباء العربية

وإذا كان الراقى قد بدأ شاعراً كما أراد ، فما كانت له خيرة في المذهب الذى آل إليه من بعد ، ولكنها نوازع الوراثة ، وعوامل البيئة ، ودوافع الحياة التى كانت تضطرب به وتذهب به مذاهبها

لم يكن الراقى يقدر فى أيام نشأته الأولى أنه سينتهى من الأدب إلى هذه الغاية ، وأن الحياة سترده من الهدف الذى يسعى إليه فى إمارة الشعر إلى هذا الهدف الذى انتهى إليه فى ديوان الأدب والإنشاء . وما كان أحد من خاصته وأصدقائه ليعرف أن الراقى الشاعر الشاب الذى توزعت عليه الصباية ، وفتنته الحياة ، وتقاسمت له ذات الصبا ، وتعناه الهوى ، وتصباه الحب والشعر والشباب — سيكون مكانه فى غده هذا المكان فى الدفاع عن الدين والدود عن العربية والصيل فى سبيل الله . وما كان هو يأمل فى مستقبله إلا أن يكون شاعراً تصير إليه فى إمارة الشعر منزلة تحمل ذكر فلان وفلان من شعراء عصره .

ومضى الراقى يسعى إلى غايته فى الشعر ، وقد تزود زاده من الأدب القديم ،

ووعى ما وعى من تراث شعراء العربية . وكان أمامه مثلان من شعراء عصره يمتد إليهما طرفه ويتعلق بهما أمله : هما البارودى وحافظ ؛ أما أولهما فكانت له زعامة الشعر ، على مفرقه تاجه وفى يده صولجانه ، قد قوى واستحصد واستوى على عرشه بعد جهاد السنين ومكابدة الأيام ؛ وأما الثانى فكان فى الشباب والحدائث ، وكان جديداً فى السوق ، قد فتنته الشهرة وفتنت به من حوله ؛ فأخذ الرافعى ينظر إليه وإلى نفسه ، ويوازن بين حال وحال ، ويقايس بين شعر وشعر ؛ فقر فى نفسه أنه هو وهو ... وأنهما فى منزلة سواء ، وأنه مستطيع أن يبلغ مبلغه ويصير إلى مكانه إذا أراد ؛ فسار على سنته وجرى فى ميدانه ، لا يكاد حافظ يقول : أنا ... حتى يقول الرافعى : أنا وأنت ... وما فاتته أن حافظاً يغالبه بالشهرة السابقة ، ويطاوله بالجاه والأنصار ، ويفاخره بمكانه من الأستاذ الإمام ، وبمنازلته عند البارودى زعيم الشعراء ، وبحظوته عند الشعب ؛ فراح الرافعى يستكمل أسباب الكفاح ويستتم النقص ؛ فأكد صلته بالبارودى ، وعقد آصرة بينه وبين الأستاذ الإمام ، ومضى يتحدث فى المجالس ، وينشر فى الصحف ، ويذيع اسمه بين الناس . وانتهز نهضة إذهب يستطيل بأنه (شاعر الحسن) وبأن حافظاً لا يقول فى الغزل والنسيب ... !

كانت المنافسة بينه وبين حافظ منافسة مؤدبة كريمة ، لم تعكر ما بينهما من صفو المودات ، ولم تجن على صداقتهما القوية ، فظل الرافعى وحافظ صديقين حميمين ، منذ تعارفا فى سنة ١٩٠٠ إلى أن قضى حافظ رحمه الله فى سنة ١٩٣٢ ليس من همى أن يتحدث عن شعر الشاعرين ، أو أقايس بين فن وفن وشاعرية وشاعرية ، فقد يبدو لى هنا بعد ما بين المنزلتين فى الموازنة بين الرافعى وحافظ فى الشعر ؛ وما يهمنى فى هذا الحديث إلا إثبات الصلة بين الرجلين ، فمن أراد شيئاً وراء هذا فسيجد فيما أثبتته هنا مقدمات البحث وهيكل البناء .

فى إبان هذه المعركة الصامتة بين الرافعى وحافظ ، /قدم إلى مصر/ شاعر كبير

لم يكن الرافى يعرفه او يسمع به أو قرأ شيئاً من شعره ، ذلك هو شاعر العراق الكبير المرحوم عبد المحسن الكاظمى ، ونشرت له الصحف غداة مقدمه قصيدة عينية من بحر الطويل ، قرأها الرافى فاستجادها ورأى فيها فناً ليس من فن الشعراء المعاصرين الذين قرأ لهم ، فلكت نفسه وبلغت منه مبلغاً ، وقرر لساعته أن يسى إلى التعرف به ، ليصل به حبله ويقتبس من أدبه ، وكان الرافى يومئذ كاتباً بمحكمة طلخا ، ففارق عمله بغير إجازة ، وسى إلى لقاء الكاظمى فى القاهرة وهو عنى نفسه بأن يكون بينهما من الود ما يرفع من شأن الرافى ويجدى على أدبه ، وكان فى الكاظمى — رحمه الله — أنفة وكبرياء . فأبى على الرافى أن يلقاه ورده رداً غير جميل ، إذ كان الرافى يومئذ نكرة فى الأدباء ، وكان الكاظمى ما كان فى علمه وأدبه وشهرته وكبريائه ، مع خلته وفقره ؛ واصطدمت كبرياء بكبرياء ، وثار دم الرافى وغلى غليانه ، فذهب من فوره فأنشأ مقالة (أو قصيدة ، لا أذكر) نال فيها من الكاظمى ما استطاع أن ينال بزمه والزراية عليه والفض من مكاتته ؛ وما كان الرافى مؤمناً بما كتب ، ولكنه قصد أن يلفت الشاعر إليه بالإنذار والتخويف ، بعد ما عجز أن يبلغ إليه بالزنى والكرامة .

وفعلت هذه الكلمة فعلها فى التقريب بين الأديبين ، فاتصل الرافى بالكاظمى وصفا ما بينهما وأخلصا فى الوداد والحب حتى لم يكن بينهما حجاب ، وحتى صار الرافى أصفى أصفياء الكاظمى ، وصار الكاظمى أشعر الشعراء المعاصرين عنده الرافى ، ثم ارتفعت الصلة بينهما عما يكون بين التلميذ والأستاذ ، وتصادقا صداقة النظراء ، حتى إنه لما هم الكاظمى أن يسافر إلى الأندلس فى سنة ١٩٠٥ كتب كتاباً إلى الرافى يقول فيه : « ... ثق أنى أسافر مطمئناً وأنت بقيت فى مصر »

هؤلاء الثلاثة : البارودى ، وحافظ ، والكاظمى ، هم كل من أعرف ممن تأثر

بهم الرافى من شعراء عصره : أما شوقى ، وصبرى ، ومطران ، وغيرهم ممن نشأوا مع الرافى فى جيل واحد ، فلا أعرف بينه وبين أحد منهم صلة تمتد إلى أيامه الأولى وما سمعت منه — رحمه الله — حديثاً يشعر بصلة خاصة كانت تربطه بواحد منهم

في حدائته ، فلعل عند غيرى من أهل الأدب علماً من العلم يكمل هذا النقص ويسد هذه الخلة .

بدأ الرافى يقول الشعر ولما يبلغ العشرين من عمره ، ينشره في الصحف وفي مجلات السوريين التي تصدر في مصر ، وكانت المجلات الأدبية كلها إلى ذلك الوقت في أيديهم ، فجلة الضياء ، والبيان ، والثريا ، والزهرء ، والمقتطف ، وسركيس ، والهلل ، وغيرها — كان يقوم عليها كلها جماعة من أدباء سورية : كالبستاني ، واليازجى ، وصروف ، وجورج زيدان ، وسليم سر كيس وغيرهم ؛ وكانت إليهم الزعامة الأدبية في اللغة والأدب الوصفى والتاريخ ، أما أدب الإنشاء فكان قسمة بينهم وبين أدباء مصر .

والآن أدع لصديق الأديب الأستاذ جورج إبراهيم حنا ، أن يتحدث عن الرافى في أول عهده بالشعر ؛ قال :

« بدأت صلتى بالمرحوم الرافى قريباً من سنة ١٩٠٠ ؛ كنت يومئذ أقول الشعر ، وكان اسمى معروفاً لقراء مجلة الثريا ، ولم أكن أعرف الرافى أو أسمع به ، وكان لأخيه الوجيه سعيد الرافى متجر في شارع الخان بطنطا ، يستورد إليه النقل والفواكه الجافة من الشام ، وكنت زبونه ، فذهبت إليه يوماً أشتري شيئاً من فاكهة الشام ، إذ كان له بها شهرة ؛ فلما صرت إليه ، لقيت هناك فتى نحيلاً في العشرين من عمره ، يلبس جلباباً ، جالساً إلى مكتب في المتجر قريب من الباب ، فما رأني الفتى حتى ناداني فدعاني إلى الجلوس ، ثم قال لى : أتعرف أنى شاعر ؟ قلت : لا ؛ لست أعرف . قال : أنا مصطفى صادق الرافى ، وهذه الكراسات كلها من شعرى . وعرض على بضعة دفاتر كانت على المكتب ، ثم استأنف قائلاً : ولكنه شعر الحدائث فهو لا يعجبني ؛ سأختار أجوده وأمزق الباقي ، وسأطبع ديوانى بمد قليل فتعرفنى ... ! »

قال : « وعرفت الرافى من يومئذ ، وقويت بيننا الصلة حتى صرت أدنى

أصدقائه إليه : يقرأ على شعره ، ويستمع إلى رأي فيه ، ويستشيرني في أمره .
وقد كان أوله كآخره ، فما لبثت حتى أعجبت به وأحلفت من نفسي أرفع محل
من الحب والتقدير .

ظل الراجي يقول الشعر لنفسه ، أو ينشر منه في المجلات الأدبية ، أو يقرؤه
على أصدقائه . وأصدقائه يومئذ صفوة من شباب السوريين في طنطا : منهم الأديب
جورج إبراهيم ، والصيدليان نسيم يارد وإلياس عجمان ، والطبيب تودري ، وكانوا
يتخذون مجلسهم عادة في وقت الفراغ ، في صيدلية (كوكب الشرق) بطنطا .

فلما كانت سنة ١٩٠٣ ، وعمر الراجي يومئذ ثلاث وعشرون سنة ، نشر
حافظ إبراهيم ديوانه ، وقدم له بمقدمة بليغة كانت حديث الأدباء في حينها ، وطال
حولها الجدل حتى نسبها بعضهم إلى المويلحي . واستقبل الأدباء ديوان حافظ
ومقدمة ديوانه استقبالا رائعا ، وعقدوا له أكاليل الثناء . والراجي غيور شمس ،
فما هو إلا أن رأى ما رأى ، حتى عقد العزم على إصدار ديوانه ، وما دام حافظ
قد صدر ديوانه بهذه المقدمة التي أحدثت كل هذا الدوى ، فان على الراجي أن يحاول
جهده ليلبغ بديوانه ما بلغ حافظ ، وإن عليه أن يحمل الأدباء على أن ينسوا بمقدمته
مقدمة ديوان حافظ .

وصدر الجزء الأول من ديوان الراجي في الموعد الذي أراد ، بعمد ديوان
حافظ بقليل ، وقدم له بمقدمة بارعة فصل فيها معنى الشعر وفنونه ومذاهبه وأوليته ،
وهي ، وإن كانت أول ما نعرف مما كتب الراجي ، تدل بمعناها ومبناها على أن ذلك
الشاب النحيل الضاوي الجسد ، كان يعرف أين موضعه بين أدباء العربية في غد .
وإذا كانت مقدمة ديوان حافظ قد ثار حولها من الجدل ما حمل بعض الأدباء
على نسبتها إلى المويلحي ، فقد حملت هذه المقدمة الأديب الناقد الكبير الشيخ
إبراهيم اليازجي على الشك في أن يكون كاتبها من ذلك العصر ، مما يخادع نفسه
في قدرة الراجي على كتابتها .

قال الأستاذ جورج ابراهيم :

« لما هم الرافعي أن يكتب مقدمة ديوانه ، جاء إلى في جلبابه والحر شديد ، فحدثني من حديثه ، ثم سألتني أن أهني له مكاناً رطباً يجلس فيه ليكتب المقدمة ، فجلس في غرفة من الدار ، ثم تخفف من لباسه . . . واقعد البلاط بلا فرش ، وبسط أوراقه على الأرض وتهاى للكتابة ؛ فحدثته أن تنال منه رطوبة البلاط في مجلسه الطويل . فقال : لا عليك يا جورج ؛ إني لأحب أن أحس الرطوبة من تحتي . . . فينشط رأسي . . . ثم استمر في مجلسه يكتب وليس معه ولا حواليه من وسائل العلم إلا قلمه وأوراقه ، حتى فرغ من المقدمة في ساعات . . .

قال : « فلما تم طبع الديوان أهدى نسخة منه فيما أهدى إلى العلامة الشيخ إبراهيم اليازجي ، والشيخ اليازجي يومئذ أديب العصر وأبلغ منشي في العالم العربي . وكان الرافعي حريصاً على أن يسمع رأي الأستاذ اليازجي في شعره وأدبه ، ومضى زمان ولم يكتب اليازجي ، على حين تناولت كل الصحف والمجلات ديوان الرافعي ومقدمته بالنقد أو التعريض ، واحتفل به المؤيد احتفالاً كبيراً فنشر مقدمته في صدره ، والمؤيد يومئذ جريدة العالم العربي كله .

قال : « واستعجبت أن يهمل أستاذنا اليازجي هذا الديوان فلا يكتب عنه ، واغتم الرافعي لذلك غماً شديداً ؛ إذ كان كل ما يكتب الأدباء في النقد لا يغني عن كلمة يقولها اليازجي ؛ فذهبت أسأله ، فقال لي : أنت على ثقة أن هذه المقدمة من إنشاء الرافعي ؟ قلت : هو كتبها بعيني فما أشك في ذلك . قال اليازجي : وأنا ما أبطأت في الكتابة عن الديوان إلا من الشك في قدرة هذا الشيخ على إنشاء مثل هذه المقدمة ؛ فأنا منذ أسبوعين أبحث عنها في مظانها من كتب العربية . . . قلت : ياسيدي ، إنه ليس بشيخ ، إنه فتى لم يبلغ الثالثة والعشرين . . . » وكتب اليازجي بعد ذلك في عدد يونيو سنة ١٩٠٣ من مجلة الضياء في تعريض الجزء الأول من ديوان الرافعي ما يأتي :

« . . . وقد صدره الناظم بمقدمة طويلة في تعريف الشعر ، ذهب فيها منهجاً

عزيراً في البلاغة ، وتبسط ما يشاء في وصف الشعر وتقسيمه وبيان مزيته ،
في كلام تضمن من فنون المجاز وضروب الخيال ما إذا تدبرته وجدته هو الشعر
بمعينه . . . »

ثم انتقد اليازجي بعض ألفاظ في الديوان ، وعقب عليها بقوله :
« ... على أن هذا لا ينزل من قدر الديوان وإن كان يستحب أن يخلو منه ،
لأن المرأة النقية لا تستر أدنى غبار ، ومن كملت محاسنه ظهر في جنبها أقل العيوب ؛
وما انتقدنا هذه المواضع إلا ضناً بمثل هذا النظم أن تتعلق به هذه الشوائب ،
ورجاء أن يتنبه إلى مثلها في المنتظر ، فان الناظم كما بلغنا لم يتجاوز الثالثة والعشرين
من سنيه ، ولا ريب أن من أدرك هذه المنزلة في مثل هذه السن ، سيكون
من الأفراد المجلين في هذا العصر ، وممن سيحلون جيد البلاغة بقلائد النظم
والنثر^(١) » .

بلغ الرافعي بالجزء الأول من ديوانه مبلغه الذي أراد ، واستطاع بغير عناء
كبير أن يلفت إليه أنظار أدباء عصره . ثم استمر على دأبه ، فأصدر في سنة
١٩٠٤ الجزء الثاني من الديوان ، وفي سنة ١٩٠٦ أخرج الجزء الثالث ، وفي سنة
١٩٠٨ الجزء الأول من ديوان النظرات ؛ ومضى على سنته ، معنيا بالشعر ،
متصرفاً في فنونه ، ذاهباً فيه مذاهبه ، لا يرى له هدفاً إلا أن يبلغ منزلة من الشعر
تخلد اسمه بين شعراء العربية .

وتألق نجم الرافعي الشاعر ، وبرز اسمه بين عشرات الأسماء من شعراء عصره
براقاً تلمع أضواؤه وترى أشعتها إلى بعيد ؛ ولقى من حفاوة الأدباء ما لم يلقه
إلا الأقلون من أدباء هذه الأمة ، فكتب إليه الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده
يقول :

(١) لا ينبغي أن أهل هنا يكتب أهل الأدب في الرافعي ، وإنما أثبت هذه القطعة
بخصوصها لما كان لها في نفسه من تأثير بليغ

« . . . أسأل الله أن يجعل للحق من لسانك سيفاً يحق به الباطل ،
وأن يقيمك في الأواخر مقام حسان في الأوائل »
وكتب المرحوم الزعيم مصطفى كامل باشا يقول :
« . . . وسيأتى يوم إذا ذكر فيه الرافى قال الناس : هو الحكمة العالية
مصوغة في أجمل قالب من البيان »

وكتب حافظ ، وقال البارودى ، ونظم الكاظمى ، وتحدث الأدباء والشعراء
ما تحدثوا عن الرافى الشاعر . وظل هو على مذهبه ذاك حتى سنة ١٩١١ ،
ثم تطورت به الحياة ، وانفعلت أعصابه بأحداث الأيام ، فانهرف عن الهدف الذى
كان يرمى إليه من الشعر ، وتوجه وجهة جديدة فى الأدب سنتحدث عنها بعد
ليس كل شعر الرافى فى دواوينه ، وليس كل ما فى دواوينه يدل على فنه
وشاعريته ؛ فالجيد الذى لم ينشر من شعر الرافى أكثر مما نشر ؛ وقد كان
فى نية الرافى لو أمهلته المنية أن يتبرع لشعراء اليوم بأكثر ما فى دواوينه ،
ثم يخرج منها ومما لم ينشر ديواناً واحداً مهذباً مصقولاً ، ليقدمه هدية منتقاة
إلى الأدباء والمتأدين ، ولكن الموت غاله فبطل أمله وبقي عمله تراثاً باقياً لمن يشاء
أن يسدى يداً إلى العربية يتم بها صنيع الرافى .

لم ينقطع الرافى عن الشعر بعد تلك الفترة ولكنه لم يقتصر عليه ،
وسنتحدث عن ديوان الرافى الذى لم ينشر حين تحين الفرصة للحديث عن أعماله
الناقصة .



شعراء عصره

قدمت الحديث عن شيوخ الرافى فى الشعر الذين أخذ عنهم أو اقتفى آثارهم أو جرى معهم على سنن . وأثبت ما كان بينه وبين حافظ من المنافسة ، وما كان يتمتع به حافظ يومئذ من الشهرة والجاه والحظوة عند الشعب ، تلك الشهرة التى التى ألهمت غيره الرافى وحفزته إلى الكفاح وحمسته إلى استكمال أسباب الغلبة بعقد الأواصر وإنشاء المودات والدعاية لنفسه . ثم بينت ما كان بين الرافى والكاظمى من صلة الحب والتقدير ؛ وتساءلت فى آخرة القول : هل من صلة بين الرافى وبين غير هؤلاء الثلاثة من شعراء الجيل ؟ هل كان لغير البارودى وحافظ والكاظمى من شعراء العصر أثر فى شعر الرافى ؟ وما مبلغ هذا الأثر ؟ وما نتيجته ؟ على أن الباحث لا يقنعه هذا التساؤل ، وليس يكفيه من وسائل البحث أن يعلم من شعراء العصر هؤلاء الثلاثة فحسب ؛ ولقد نشأ الرافى الشاعر فى أول هذا القرن ، وأوله حافل بثلة من الشعراء لم يجتمع مثلهم فى زمان فى بلد ؛ فما مبلغ تأثير الرافى بكل أولئك الشعراء المعاصرين ؟

هنا أدع للرافى نفسه أن يتحدث ، وما حديثه هذا إلا طرف من الدعاية التى كان يقوم بها لنفسه فى أول عهده بالشعر ليلبغ المنزل الذى يطمح إليه . وإنه ليكشف عن شئ من خلق الرافى وكبريائه واعتداده بنفسه ، ويدل على قوة الرافى وعنفوانه وشدة فى النقد ، إذ كان هذا الحديث أول ما كتب الرافى فى النقد .

إن أدباء العربية عامة لا يعرفون من الخصومات الأدبية أشهر شهرة

من الخصومة بين الراجى وأدباء عصره ؛ فالخصومة بين الراجى وطه ، وبين الراجى والمقاد ، وبين الراجى وعبد الله عفيفى ، وبينه وبين غير هؤلاء — هى خصومة مشهورة مذكورة فى موضعها من تاريخ الأدب العربى فى هذا الجيل ، مشهورة مذكورة فى موضعها من تاريخ النقد فى العربية .

وإن قراء العربية عامة ليعرفون الراجى الناقد معرفة بصيرة ، ويعرفون شدته وعنفوانه فى النقد ، شدة حبيبته إلى الكثير ، وألبت عليه الكثير . على أن من يريد أن يعرف أول شأن الراجى فى النقد فليقرأ مقال الراجى « شعراء العصر فى سنة ١٩٠٥ »

نشر الراجى مقاله ذاك فى عدد يناير سنة ١٩٠٥ من مجلة الثريا بتوقيع (*) وأحسبه أخفى اسمه وراء هذا الرمز حذر الهممة ، وليبلغ به مبلغه فى الدعاية لنفسه ، فقد جعل نفسه فى الشعراء رابع الطبقة الأولى من طبقات ثلاث تنتظم كل من يعرف الراجى من شعراء عصره . جعل الطبقة الأولى منهم على الترتيب :

الكاظمى ، والبارودى ، وحافظ ، والراجى ...

والطبقة الثانية على الترتيب :

صبرى ، وشوقى^(١) ، ومطران ، وداود عمون ، والبكرى ، وتقولا رزق الله ،

وأمين الحداد ، ومحمود واصف ، وشكيب أرسلان ، ومحمد هلال إبراهيم ،

ثم ... حفى ناصف !

وفى الطبقة الثالثة :

الكاشف ، والمنفلوطى ، ومحرم ، وإمام العبد ، والعزبى ، ونسيم .

(١) لم يثبت الراجى طويلا على هذا الرأى فى ترتيب شعراء عصره ، وفيما كتب بعد

ذلك من المقالات بتوقيعه العزيع ، يبان رأيه فى آخره .

ثم الحق بهؤلاء اثنين يعرفهما من شعراء العراق ، هما : السيد إبراهيم ،
ومحمد النجفي

وقد افتح الرافعي مقاله بما يأتي :

« قرأت في بعض أعداد (الثريا) كلمة عن (الأدب قديماً وحديثاً) فقلت :
كلمة مألوفة . ولم ألبث أن رأيت جملة أخرى لأديب غيور على الشعراء ، كان رأس
الشعرين أولها وآخرها كأنما خدش بين حجرين ؛ فقلت : إني أنظم الشعر فأسر ،
وأقرأ عنه فأسر ، فإلى لا أنفثها والقوم قد أصبحوا يتنافسون في أسماء الشعراء ،
كما يتنافسون في ألقاب الأصراء ؛ وقد استويا في الزور ، فلا أكثر أولئك شاعر
ولا أكثر هؤلاء أمير

» ثم رأيت بعد أن عزم الله لي كتابة هذا المقال أن أتركه بغير توقيع ،
وإن كنت أعلم أن أكثر من يقرءونه كذلك سيخرجون من خاتمة كما لو كانوا
أميين لم يقرءوا فاتحته ، فإن الحكمة كلها والمعرفة بجميع طبقاتها أصبحت
في أحرف الأسماء . فإن قيل : كتاب لفلان ... قلنا : أين يباع ، وإن كان
من سقط المتاع . على أن اسمي قد لا يكون في غير بطاقتي وكتبي إلى أصحابي
القليين ، وفي سجل بعض الجرائد والمجلات ، فليظنني القاري ما ضرب على رأسه
الظن

» وسأذكر في هذه الأسطر كل من عرفته أو اتصل بي اسمه من الشعراء ،
وأقطع عليه رأيي ، فلما وسمه فأكمل به ، وإما أظهره كما هو في نفسه ، لا كما هو
عند نفسه ؛ ولذلك فقد ضممتهم إلى ثلاث طبقات ، وجاريت في تسمية بعضهم
بالشعراء عادتنا المألوفة «

ثم كتب رأيي بعد ذلك في كل شاعر ممن ذكرت مقتبساً من شعره
مستشهداً به على ترتيبه في موضعه من طبقته

وكان مما قاله عن صديقه ومراحه حافظ :

« ... وأكثر شعره في هذه الأيام (سنة ١٩٠٥) أضعف من قبل ... »

والدين لم تستقم السنهم ولم تزل أفكارهم على سقم يقولون : إن شعر حافظ اليوم خير منه في ديوانه الأول ؛ وذلك لأنهم لا يدركون موقع الخيال الشريف ، ولا يهتزون للمعنى البكر إلا في اللفظ الثيب ، وهؤلاء يفضلون (شوقي) عليه ، وهيات بعد أن استنوق الجمل ... ! »
وكتب عن نفسه :

« لو كان هذا الشاعر (يعنى نفسه) كما أسمع عنه ، فأنى أكون قد ظلمته إذا لم أقدمه عن هذا الموضع (الرابع من الطبقة الأولى) ؛ فقد أخبرت أنه لم يتم الرابعة والعشرين من عمره ، ولذلك فأنى لا أكتب عنه إلا ما أعرف من شعره ، سواء كان فتى أو كهلاً ؛ وهو قد طبع من ديوانه الجزء الأول من سنة مضت ، وذكر فى مقدمة شرحه أنه نظم فى عامين ، وأنه لم يقل الشعر إلا منذ ثلاث سنوات من طبع ذلك الجزء ؛ ولم أثبت أن رأيت منذ أشهر فى بعض أعداد مجلة (الجامعة) تقریظاً مسهباً جداً للجزء الثانى من ديوان هذا الشاعر ؛ فأكبرت ذلك ، ولا شك أنه ينظم اليوم فى الجزء الثالث قياساً على ما تقدم ... »

« ومما أمتاز به هذا الشاعر ولعله الشديد بالغزل ، وبلوغه فيه أسمى ما يبلغه النظم ؛ وله مزية أخرى ، وهى غوصه على المعانى فى الأغراض التى لم تطرق ، وكثيرون يعدونه بذلك شاعر مصر ، وديوانه معروف ، وشعره مشهور ... الخ »
وقال عن شوقي :

« سيأخذ بعض القراء العجب إذا رأى شوقي بك ثانى الطبقة الثانية وهو هو (شوقي بك شاعر الحضرة الفخيمة الخديوية) ، ولكننا نعجب أكثر منه إذا رأينا الشوقيات قد انقلبت إلى شوكلات ؛ فأى ذوق سليم يطمئن لهذه المعانى المكررة وتلك الألفاظ النافرة من مثل : « قضى أرحمى القوم » وغيرها . ولا أدري لهذا الانقلاب سبباً إلا إذا صح ما يقال من أن (صبرى وسلمان) كانا يهذبان شعر الرجل من قبل ، وهو قول لا أجزم به ولا أرفضه ... »
« ... وإنما اشتهر قديماً يوم كان الكاظمى فى العراق ، والبارودى فى سيلان ،

وصبرى من مهذبى شعره على ما يقال ، وحافظ فى السودان ، والرافعى لم يقل الشعر بعد — على ما قيل لى ! — وأثبت له الشهرة إضافته إلى الحضرة الخديوية ، على نحو ما يذكر النحاة فى باب (الجر) بالمجاورة ... »

ونحتم المقال بقوله :

« ... وسنرى ما يكون من امتعاض الشعراء بعد هذا المقال ، ولكنى أطلب إليهم أن يخفضوا عن أنفسهم ؛ فلا أنا من معية الأمير ، ولا من حاشية السفير ، وليس ما كتبت إلا رأى ، فليبق كل فى رأيه وعند نفسه أشعر الشعراء »
وذيلته بحلة (الثريا) بما يأتى :

« ألقى إلينا مكتب بريد الزيتون يوماً ملفاً ضخماً وارداً من مصر ، وداخله كتاب موجز ومعه المقالة المقدمة للنشر . أما الكتاب فهذه صورته بعد الديباجة :
« ... دونك مقالة بكرا لم ينسج على منوالها بعد فى العريية ، حرية بأن تصدر بها مجلتك الغراء ؛ ولا يروعنك شدة لهجتها فكلمها حقائق ثابتة . وإن آلت البعض فإن الحق أكبر من الجميع ؛ وإنى لبالرصاد لكل من ينبرى للرد عليها ، وأنا كفاء للجميع ؛ وما إخال أحداً يستطيع أن ينقض حرفاً مما كتبت ، وإن هم لموا الصمت فحسبك من سكوتهم إذ ذاك إقراراً بأنى أنزلت كل شاعر فى المنزلة التى يستحقها .

« ولا يعنيك معرفة اسمي ، فأنا ابن جلا وطلاع الثنايا ؛ فانظر إلى ما قيل وليس لمن قال ، وبعد هذا فإن أعجبتك مقالتي فانشرها وإلا فاضرب بها عرض الحائط .

« وإنى أقترح عليك أن تنشر جميع ما يردك من الردود فى المعنى ، سواء جاهر أصحابها بأسمائهم أو تستروا ، فإن الموضوع طلى شهى ، وفى إطلاقك الحرية للكتاب ما ينشط بهم لحرية الجولان فى هذا المضمار »

قالت الثريا : وقد تصفحننا المقالة فراعنا شدة لهجة الكاتب وبتنا نقدم رجلاً ونؤخر أخرى فى نشرها ، إلى أن تغلب علينا الميل لنشرها ، إن لم يكن لشيء .

فلكثرة ما حوته من رائق الأشعار لفحول الشعراء ، وهم نخبة شعراء مصر في هذا العصر ؛ فأقدمنا على نشرها كما وردتنا بالحرف الواحد ، غير متحملين تبعها ؛ وللكتاب الأدباء الحرية في الرد عليها ، وأبواب الثريا ترحب بكل ما يردها من هذا القبيل ، سواء من المشتركين أو غيرهم .

« ومن لم يزد عن حوضه بسلاحه يهدم ، ومن لا يظلم الناس يظلم ^(١) »

أحسب أن لهذا المقال أهمية كبيرة لمن يريد أن يدرس الراجى دراسة أوسع قائمة على قواعد من العلم والتحليل النفسى ؛ وإنما يستأهل هذا الاهتمام من ثلاث نواح :

أولاً : إنه أول ما أنشأ الراجى فى النقد ؛ فهو كالتقدمة لهذه المارك الطاحنة التى قامت بين الراجى ولقيف من أدباء عصره بعد ذلك بعشرين سنة ؛ فلا بد لمن يريد أن يتحدث عن الراجى فى النقد أن يبدأ من هنا .

ثانياً : إنه ثبت جامع لأسماء الشعراء الذين نشأوا مع الراجى فى جيل واحد ، وقرأ لهم ونظر فى شعرهم نظر الناقد أو نظر المعجب المحتذى ؛ فلا بد لمن يريد أن يتحدث عن الراجى فى الشعر ، وعن الشعراء الذين تأثر بهم أو تأثروا به ، أن يعرف هؤلاء الشعراء .

(١) كان لهذا المقال رنة وصدى بين جماعة الشعراء فى ذلك العصر : وقد تحدث عنه المرحوم الراجى مرة فى بعض مقالاته إلى قراء الرسالة بعنوان (كلمات عن حافظ) وصف فيها أثره وما أحدث من ضجة بين الشعراء ؛ فليرجع إليه من شاء .

على أن الراجى لم يصرح فى ذلك المدد أنه كاتب المقال ، ولكنه لم يستطع كذلك أن ينفيه عن نفسه ، وإن كان معروفًا لدى خاصته وأصدقائه أنه كاتبه ؛ وأسلوب الراجى لا يخفى على أحد من قرائه .

ولقد كتب الراجى أن هذا المقال لعمره الثريا فى سنة ١٩٠٣ وهو سهو حقيقته ما ذكرت .

ثالثاً : إن في هذا المقال لوناً من ألوان الدعاية التي كان يقوم بها الرافعي لنفسه ليلغ الهدف الذي كان يرمي إليه بين أدباء العصر ، فلا بد لمن يريد أن يدرس وسائل الرافعي إلى الشهرة وذيوع الصيت أن يقرأ هذا المقال .

وبعد فإن فيه شيئاً من أخلاق الرافعي المزهو بنفسه ، المعتد بعلمه ، القوى بإيمانه ، المتفحم على مواطن الهلاك ؛ الرافعي القزم الضعيف الذي وقف على السفح تعتمد خاصرته على راحته وهو ينظر إلى فوق ليقول للشعراء العالقة على القمة : انزلوا إلى أو أضعد إليكم فأرميكم إلى بطن الوادي أشلاء ممزقة ليس فيها عضو إلى عضو ولا يسمع لكم صرخ ... !

لقد كان الرافعي طويل اللسان من أول يوم ... ! ؟

